بسم الله الرحمن الرحيم

الدِّفَاعُ عَنِ الْأَوْطَانِ بَيْنَ الْوَاجِبِ الْعَيْنِيِّ وَالْكِفَائِيِّ وَعِظَمُ الْجَزَاءِ ١٥ رَجَبٍ ١٤٤٥ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْوَطَنُ فِيهِ الْمَاضِي وَالذِّكْرَيَاتُ، وَفِيهِ الْمُسْتَقْبَلُ وَالْأُمْنِيَاتُ، وَفِيهِ الْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ، وَمُفَارَقَتُهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَىٰ نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَىٰ أَهْلِهِ». نَقَلَ ابْنُ مُفْلِحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ» عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ وَفَاءَ الرَّجُلِ وَوَفَاءَ عَهْدِهِ فَانْظُرْ إِلَىٰ حَنِينِهِ إِلَىٰ أَوْطَانِهِ، وَتَشَوُّقِهِ إِلَىٰ إِخْوَانِهِ، وَبُكَائِهِ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ مِنْ زَمَانِهِ.

وَلِـــي وَطَـــنٌ آلَيْـــتُ أَلَّا أَبِيعَـــهُ ... وَأَلَّا أَرَىٰ غَيْـرِي لَـهُ الـدَّهْرَ مَالِكَـا

عَهِـدتُ بِـهِ شَـرْخَ الشَّـبَابِ وَنِعْمَـةً ... كَنِعْمَـةِ قَـوْمٍ أَصْبَحُـوا فِـي ظِلَالِكَـا

فَقَـدْ أَلِفَتْـهُ الـنَّفْسُ حَتَّـىٰ كَأَنَّـهُ ... جَسَـدٌ إِنْ بَـانَ غُـودِرْتُ هَالِكَـا

عِبَادَ اللهِ: ذَهَبَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ لِيَحْكِيَ لَهُ مَا رَأَىٰ فِي الْغَارِ، فَلَمَّا سَمِعَ مِنْهُ مَا حَدَثَ، أَخْبَرَهُ بِحَقِيقَةِ الْوَحْيِّ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ. وَلَكِنْ أَخْبَرَهُ بِشَيْءٍ عَجِيبٍ؛ قَالَ لَهُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ»: قَالَ السُّهَيْلِيُّ: يُؤْخَذُ مِنْهُ شِدَّةُ مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ عَلَىٰ النَّفْسِ، فَإِنَّهُ ﷺ سَمِعَ قَوْلَ وَرَقَةَ أَنَّهُمْ يُؤْذُونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ فَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ انْزِعَاجٌ لِذَلِكَ، فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُ الْإِخْرَاجَ تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ؛ لِحُبِّ الْوَطَنِ وَإِلْفِهِ، فَقَالَ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: حُبُّ الْأَوْطَانِ مَرْكُوزٌ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْجَمَالِ، قَالَ زَكَرِيَّا

ابْنُ مُحَمَّدٍ الْقَزْوِينِيُّ فِي «آثَارِ الْبِلَادِ وَأَخْبَارِ الْعِبَادِ» عَنْ بَلْدَةِ الرَّصَافَةِ: وَمِنْ عَجِيبِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ أَنْ لَيْسَ بِهَا زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ وَلَا مَاءٌ، وَلَا أَمْنٌ وَلَا تِجَارَةٌ، وَلَا صَنْعَةٌ مَرْغُوبَةٌ، وَأَهْلُهَا يَسْكُنُونَهَا، وَلَوْلَا حُبُّ الْوَطَنِ لَخَرِبَتْ. اهـ

وَكَمَا قِيلَ:

بِــلَادٌ أَلِفْنَاهَــا عَلَــىٰ كُــلِّ حَالَــةٍ وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنْ

وَتُسْتَعْذَبُ الْأَرْضُ الَّتِي لَا هَوَاءَ بِهَا وَلَا مَاؤُهَــا عَــذْبٌ، وَلَكِنَّهَــا وَطَــنْ

إِنَّ إِخْرَاجَ الْإِنْسَانِ مِنْ وَطَنِه كَإِخْرَاجِهِ مِنَ الْحَيَاةِ؛ وَلِهَذَا قَرَنَ اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَهُمَا فِي كِتَابِهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ الْيَهُودِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ لَا يُقَدَّرُ بِالْأَثْمَانِ، وَلَوْ ظُلِمَ وَافْتَقَرَ فِيهَا الْإِنْسَانُ، بَلْ وَلَوْ جَارَ عَلَيْهِ فِيهَا السُّلْطَانُ. ذَكَرَ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ فِي كِتَابِهِ «مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ» بَلَدًا اسْمُهَا سِيرَافُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهَا وَلَيْسَ بِهَا قَوْمٌ إِلَّا صَعَالِيكُ - أَيْ: فُقَرَاءُ -، مَا أَوْجَبَ لَهُمُ الْمُقَامُ بِهَا إِلَّا حُبَّ الْوَطَنِ.

وَكَمَا قِيلَ:

بِــلَادِي وَإِنْ جَــارَتْ عَلَــيَّ عَزِيــزَةٌ وَأَهْلِــي وَإِنْ ضَــنُّوا عَلَــيَّ كِــرَامُ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْأَمْنَ هُوَ أَعْظَمُ مَطْلُوبٍ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ فِي الْأَوْطَانِ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا تَرَكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام زَوْجَتَهُ وَابْنَهُ فِي وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ لِيَكُونَ لَهُمْ مَوْطِنًا، دَعَا لَهُ بِالْأَمْنِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فَمَا فَائِدَةُ الرِّزْقِ الرَّغِيدِ فِي بِلَادٍ الْخَوْفُ فِيهَا شَدِيدٌ؟ وَمَا فَائِدَةُ عَافِيَةِ الْأَبْدَانِ فِي وَطَنٍ لَا يَأْمَنُ فِيهِ الْإِنْسَانُ؟، وَأَمَّا إِذَا اجْتَمَعَ لَهُ الْأَمْنُ وَالرِّزْقُ وَالْعَافِيَةُ فَقَدِ اجْتَمَعَتْ لَهُ الدُّنْيَا جَمْعَاءُ صَافِيَةً، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رحمه الله، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا».

وَلِأَهَمِّيَّةِ الْأَمْنِ كَانَتْ أَوَّلُ بِشَارَةٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ ذَهَابَ الْخَوْفِ وَحُلُولَ الْأَمْنِ الْمُقِيمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

عِبَادَ اللهِ: الْمَعَاصِي سَبَبٌ لِكَشْفِ الْعَوْرَاتِ الْأَمْنِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، فَتُسْتَهْدَفُ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِالْأَسْلِحَةِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، كَمَا كُشِفَتْ عَوْرَةُ آدَمَ وَحَوَّاءَ بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾. فَأَمْنُ الْوَطَنِ مَسْؤُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، فَيَجِبُ الْحِفَاظُ عَلَيْهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَبِمَا نَسْتَطِيعُ، وَلْنَحْذَرْ نَشْرَ الْمَقَاطِعِ الْمُفْزِعَةِ، وَالرَّسَائِلِ الْمُزَعْزِعَةِ، الَّتِي تُثِيرُ الْهَلَعَ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: بَعْضُ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَتَرَبَّ عَلَىٰ مَنْهَجِ السَّلَفِ لَا يَرُوقُ لَهُ أَبَدًا الدُّعَاءُ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ، مَعَ أَنَّهُ مَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَعَلِّي أَسُوقُ بَعْضَ النُّقُولِ فِي هَذَا الْبَابِ اخْتِصَارًا:

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَرْبَهَارِيُّ الْهِنْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «السُّنَّةِ»: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو عَلَىٰ السُّلْطَانِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ هَوًىٰ، وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَدْعُو لِلسُّلْطَانِ بِالصَّلَاحِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ إِنْ شَاءَ اللهُ. يَقُولُ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: لَوْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مَا جَعَلْتُهَا إِلَّا فِي السُّلْطَانِ، قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، فَسِّرْ لَنَا هَذَا، قَالَ: إِذَا جَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي لَمْ تَعْدُنِي، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي السُّلْطَانِ صَلَحَ فَصَلَحَ بِصَلَاحِهِ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ. فَأُمِرْنَا أَنْ نَدْعُوَ لَهُمْ بِالصَّلَاحِ، وَلَمْ نُؤْمَرْ أَنْ نَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ ظَلَمُوا وَجَارُوا؛ لِأَنَّ جَوْرَهُمْ وَظُلْمَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَصَلَاحَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «عَقِيدَتِهِ»: وَلَا نَرَىٰ الْخُرُوجَ عَلَىٰ أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَىٰ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ.

وَأَخْرَجَ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِهِ «السُّنَّةِ» عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ الْبَغْدَادِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: وَإِنِّي لَأَدْعُو لَهُ بِالتَّسْدِيدِ وَالتَّوْفِيقِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالتَّأْيِيدِ، وَأَرَىٰ لَهُ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَيَّ.

وَقَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ الدِّمَشْقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «الْمَجْمُوعِ»**: فَأَمَّا الدُّعَاءُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَوُلَاةِ أُمُورِهِمْ بِالصَّلَاحِ وَالْإِعَانَةِ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلِجُيُوشِ الْإِسْلَامِ، فَمُسْتَحَبٌّ بِالِاتِّفَاقِ.

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّنَا كَمَا سَنَكُونُ يُوَلَّىٰ عَلَيْنَا. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: وَتَأَمَّلْ حِكْمَتَهُ تَعَالَىٰ فِي أَنْ جَعَلَ مُلُوكَ الْعِبَادِ وَأُمَرَاءَهُمْ وَوُلَاتَهُمْ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ، بَلْ كَأَنَّ أَعْمَالَهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ، فَإِنِ اسْتَقَامُوا اسْتَقَامَتْ مُلُوكُهُمْ، وَإِنْ عَدَلُوا عَدَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ جَارُوا جَارَتْ مُلُوكُهُمْ وَوُلَاتُهُمْ، وَإِنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فَوُلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، وَإِنْ مَنَعُوا حُقُوقَ اللهِ لَدَيْهِمْ وَبَخِلُوا بِهَا مَنَعَتْ مُلُوكُهُمْ وَوُلَاتُهُمْ مَا لَهُمْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَبَخِلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ أَخَذُوا مِمَّنْ يَسْتَضْعِفُونَهُ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ فِي مُعَامَلَتِهِمْ أَخَذَتْ مِنْهُمُ الْمُلُوكُ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمُكُوسَ وَالْوَظَائِفَ، وَكُلُّ مَا يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنَ الضَّعِيفِ يَسْتَخْرِجُهُ الْمُلُوكُ مِنْهُمْ بِالْقُوَّةِ، فَعُمَّالُهُمْ ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ أَعْمَالِهِمْ، وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ يُوَلَّىٰ عَلَىٰ الْأَشْرَارِ الْفُجَّارِ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ خِيَارَ الْقُرُونِ وَأَبَرَّهَا كَانَتْ وُلَاتُهُمْ كَذَلِكَ، فَلَمَّا شَابُوا شَابَتْ لَهُمُ الْوُلَاةُ، فَحِكْمَةُ اللهِ تَأْبَىٰ أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَزْمَانِ مِثْلَ مُعَاوِيَةَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَضْلًا عَنْ مِثْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، بَلْ وُلَاتُنَا عَلَىٰ قَدْرِنَا، وَوُلَاةُ مَنْ قَبْلَنَا عَلَىٰ قَدْرِهِمْ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مُوجَبُ الْحِكْمَةِ وَمُقْتَضَاهَا، وَمَنْ لَهُ فِطْنَةٌ إِذَا سَافَرَ بِفِكْرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ رَأَىٰ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ سَائِرَةً فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً فِيهِ، كَمَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ سَوَاءٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِظَنِّكَ الْفَاسِدِ أَنَّ شَيْئًا مِنْ أَقْضِيَتِهِ وَأَقْدَارِهِ عَارٍ عَنِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، بَلْ جَمِيعُ أَقْضِيَتِهِ تَعَالَىٰ وَأَقْدَارِهِ وَاقِعَةٌ عَلَىٰ أَتَمِّ وُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، وَلَكِنَّ الْعُقُولَ الضَّعِيفَةَ مَحْجُوبَةٌ بِضَعْفِهَا عَنْ إِدْرَاكِهَا، كَمَا أَنَّ الْأَبْصَارَ الْخُفَّاشِيَّةَ مَحْجُوبَةٌ بِضَعْفِهَا عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَهَذِهِ الْعُقُولُ الضِّعَافُ إِذَا صَادَفَهَا الْبَاطِلُ جَالَتْ فِيهِ وَصَالَتْ، وَنَطَقَتْ وَقَالَتْ، كَمَا أَنَّ الْخُفَّاشَ إِذَا صَادَفَهُ ظَلَامُ اللَّيْلِ طَارَ وَسَارَ.

خَفَافِيشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوْئِهِ وَلَازَمَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ